صقر قريش

بحث نفيس
في إحدى هديتي المقتطف السنويتين (١)

« اذا ابتعد المسافر عن مدينة اخذت تظهر له من بعيد الامكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يرى الا اكثر الامكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن وتلفت الركب الى الوراء صرنا لا نلمح إلا الشخصيات البارزة المتسامية اللامعة في الجو التاريخي الماضي ؛ ويمكننا ان نرد اكثر ما نلمحهُ من تلك الشخصيات الى بيتين لهما اكبر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم ، وهما الشعبتان النابتتان من صلب عبد مناف »

***

قدم الكاتب المحقق الأستاذ علي ادهم فصلاً من فصول رسالته « صقر قريش » بهذه الكلمة الصادقة في تصورها ومجازها — وتمني برسالته تلك التي اجازتها مجلة « المقتطف » الزاهرة واختارتها لنشرها واهدائها إلى قرائها ، من بين الآثار العربية التي تكفل بطبعها السري المعني بالادب والعلم صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا ، تقدمة لذكرى منشيء المقتطف العلامة الدكتور يعقوب صروف

الحق ان تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام حافل بالسير العظيمة التي لا تزال مغبونة مجهولة المقدار في موازين التاريخ الحديث ، لم تصب ما اصابهُ ابطال اليونان والرومان الاقدمين من درس واستقصاء ، ولم تصب ما اصابه ابطال العصر الحاضر من تنويه وذيوع بين عامة القراء وانها مع ذلك لتتسع للمراجعة والتحليل وتخرج من بوتقة الامتحان على مثال يضارع احسن الامثلة ؛ ويوافق جميع المشارب والاذواق ، ايّاً كانت المقاصد التي تبتغيها من القراءة

واليك مثلاً « صقر قريش » الذي كتب عنهُ الاستاذ ادهم رسالته القيمة ، وهو عبد الرحمن

---

(١) كتب الاستاذ عباس محمود العقاد مقالا في كتاب « صقر قريش » تأليف الاستاذ علي أدهم — وقد كان احدى هديتي المقتطف السنويتين (١٩٣٨) — في جريدة الدستور فاستأذنا حضرته في اثباته في المقتطف

اتداخل منشيء الدولة الاموية في الاقطار الاندلسية ، فأي ذوق من الاذواق لا يجد كفايته ومتعته في تاريخ هذا الرجل المقدام

من كان يطلب المغامرات القصصية فهذا بطل يقل نظيره بين ابطال القصص التي تقوم وقائعها كلها على المطاردة والتعقب والنجاح في الهرب والتخفي بين المشرق والمغرب والحضر والبادية والاصدقاء والاعداء : رجل نجا من جيوش الدولة القائمة سابحاً في الماء وهو يكاد يعمى من الرمد ، ورأى بعينيه من هربوا معه سابحين يتعبون فيعودون فيقتلون ، ويذهب هو في الآفاق شريداً منبوذاً يعاني الجوع والشظف حتى يتاح له ملك دولة باذخة يهابها شارلمان والمنصور

ومن كان يطلب الحوادث والعظائم فهذه سيرة لا تنطوي صفحة منها إلاّ على حادث يطيح بأمير ويرفع بأمير، ويتردد في حوادثها جميعاً كل ماينفتق به عقل الانسان من حيلة وتدبير وتقدير

ومن كان يطلب العبرة الاجتماعية فعرض العبرة هنالك واسع جد السعة بين اطوار التاريخ في الاندلس وهي متداعية ، وبين اطوار التاريخ في امم الاسلام وهي ناهضة كابية ، وبين عرب وبربر وفرنجة ويهود ومسيحيين تتشعب بهم الغايات فتلتقي ساعة وتفترق ساعات؛ وحسبك من ذلك انقسام المسلمين وحدهم الى مشارقة ومغاربة والى مضرية ويمنية والى شيع من كل قبيل، يتبعون اليوم هذا القائد وينحرفون غداً الى ذلك القائد ، ولا يثبتون على نهج طويل

ومن كان يطلب تحليل النفوس ودخائل السرائر فهذا مجال تتكرر فيه عشرات الاسماء كل اسم منها يشتمل على صورة آدمية تخالف سائر الصور وتبحث في أعمالها بغير بواعث الآخرين

***

ذخيرة لا تنفد من ثروة المعرفة لجميع الطالبين والمريدين ، وقد جاءت هذه الرسالة مثلاً يحتذى في استخراج النفائس من هذه الذخيرة الوافرة ، لأن كاتبها الفاضل رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف وروية العالم وحماسة الأديب ، ويعرف من مذاهب الفلاسفة العظام في أسرار التاريخ ما ليس يعرفه عندنا غير افراد معدودين

فاذا تناول قبيلاً أو رجلاً او دولة نفذ إلى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله في مذاهب التعليل والتحليل . فيقول مثلاً في التفرقة بين اخلاق العرب واخلاق البربر : « والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب ان العربي بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك . أما البربري فانهُ عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفطن من نوره الى الجوانب الفكاهية في الأشياء »

ويقول في التفرقة بين بني هاشم وبني أمية من قريش : « كان بنو هاشم في مكة سدنة

الكعبة وأصحاب السلطة الدينية . أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم . وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتحال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة البزنطية مستفيض . وقد أكسبتهم التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس . وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية، وكان نفوذهم السياسي في مكة ينضج فيهم ملكات الرياسة وتدبير الأمور . وقد كانوا أقدر من بني هاشم على تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال اعباء الحكم . وقد قوى فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش كما زادتهم وفرة الثروة اقداماً وصلفاً . وكانوا شديدي التمسك بالأرض ليس لهم أحلام متطايرة ولا خواطر محلقة . والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة فهم لا ينظرون الى الدنيا في ضوء فكرة مقدسة او في ظل مبدإ سام . وليست نفوسهم من تلك النفوس التي تحاول أبداً أن تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الأبدية الباقية وتحرص على ان تتمسك بصخرة من اليقين في بحر الحياة القلق . بل كانوا يأخذون الحياة كما هي ويقبلونها على علاتها ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها . والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء واحراز الغايات واشباع الشهوات . وقد قاوموا الاسلام في اول نشأته وكانوا اشد اعداء صاحب الرسالة حرداً عليه ونالوه بألوان من الاذى والاضطهاد شأن الارستقراطية في عداوتها للنظم الجديدة ومستحدث الافكار خشية ان تتزحزح عن مراكزها وتفقد نفوذها، ولكنهم ادركوا بغريزة الرجال العمليين ان اليوم للاسلام فلانوا للعاصفة وتكيفوا مع الظروف . وبمهارة فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن بيتهم »

***

وبعد أن وصف الطبيعة الاموية هذا الوصف المبين اخذ في وصف « المزايا الشخصية » التي قمت ذلك الاموي الكبير — عبد الرحمن — في مغامراته ومحاولاته حتى حققت له ما يطمع في تحقيقه رجل طموح ولد من أناس جبلوا على المداورة والعزم واغتنام الفرص والمتعة بالحياة . فلا تزال ترى هذا الناقمة وهو يجترىء حيناً ويروغ حيناً ويصالح الاعداء تارة ويعتو على الاصحاب والاقرباء تارة . ويختفي ثم يظهر ويظهر ثم يختفي . ويرضى بمقدار ويغضب بمقدار ويستيئس استيئاس الجانين حين لا مناص . ويتماوت تماوت الثعلب حين لا جدوى من الهجوم . ويعامل كل انسان بما ينبغي أن يعامل به من ثقة أو حذر ومن مجاملة او مخاشنة . حتى بلغ

ما يريد أو بلغ ما تريده له غريزة التاريخ — كما يسميها الاستاذ ادهم من توجيه الحوادث وتحويل مجرى الحضارة واقامة النظام في مقام الفوضى

وعندنا ان الرحمن قد كشف عن نفسه ببيت واحد من نظمه فوق ما كشفته منه الأعمال والمساعي حيث قال

سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادر بلغت وحال حائل

وكان قد سمع ما يتقوله عليه بعض حاسديه اذ يستكثرون عليه ما فاز ويستصغرون ما عمل ويزعمون « انها الحظوظ والمصادفات » فجمع لهم اسباب فلاحه في هذا البيت الذي لم يدع سبباً من أسباب نجاحه وعلو نجمه ، وهي توفيق الحوادث وطبيعة العزم وقوة الجيش ، وتحول المقادير باحوال الامم التي نشأ فيها والتي رحل اليها ، فلو نقص سبب واحد من هذه الأسباب لما كان « عبد الرحمن » داخل ولا كانت دولة ولا كان فلاح

***

والا فهل كان عبد الرحمن ينجح هذا النجاح لو لم يكن مولوداً في بيت الملك وكان من شيمة القبائل البربرية والعربية ان تدين بالطاعة لمن له هذه السابقة في الرئاسة والأمرة ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يسمع نبوءة العراف الذي قال لكبرائه في صباه ان هذا الصبي هو امل الذرة الأموية في ظهور السلطان بعد افول النجم وادبار الدولة ؟؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يكن بربريًّا بما ورث من امه وعربيًّا بما ورث من آبائه فهو بهذه المثابة مولود لسياسة البربر والعرب على السواء ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو رحل الى المغرب في زمان استقرار وصولة ولم يرحل اليه في ذلك الزمان الذي تفرق فيه كل فريق حتى اوشك ان يمتنع الوفاق بين رجلين اثنين مدى ايام بله الشهور والاعوام

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يخطىء اعداؤه كلما احتاج الى خطئهم على النحو الذي يشبه كأنما هو الموحي اليهم بالخطأ وهو المفكر لهم بما يرمي اليه هو لا بما يرمون هم اليه؟

وكل هذا وأشباهه يقال عن نابليون ويوليوس قيصر وتيمورلنك وموسوليني وهتلر وستالين وسائر هذه العصبة من المغامرين الناجحين : اسباب تكفي في ازمانهم لبلوغ ما بلغوه بالقدرة التي فطروا عليها وعشرة اضعاف هذه القدرة لا تكفي لبلوغ ذلك المبلغ في زمان آخر ، وهذا هو الشأن في جميع عظماء الفتوح والمغامرات حيثما نبغوا بين مشارقة او مغاربة ، وفي عصر قديم او حديث

وخلاصة ما يقال ان هؤلاء المغامرين يولدون وعندهم مرجح صغير في كل مزية من المزايا يفردون به عند ما يتعادل الميزان للترجيح والتفضيل

فالذين كانوا في ذكاء عبد الرحمن وشجاعته ودهائه كثيرون ، ولكنهم لم ينشئوا الدول ولم يغلبوا الأقران اما لأنهم اخطأوا العصر في الميلاد ، واما لأنهم ولدوا في غير البيت المطلوب ومرة لأن اعداءهم كانوا على خلاف الحالة التي تهون بها مغالبة الاعداء ، ومرة لأنهم غابوا حيث كان ينبغي ان يحضروا او حضروا حيث كان ينبغي ان يغيبوا ، فلو تأخر انتباه عبد الرحمن هنيهة وجيزة للجيش العباسي الداهم لما سمعنا به في الحاكمين ولكان الآن في غمار الألوف الذين قتلوا لأن اعداءهم ادركوهم لحظة من اللحظات قبل الانتباه ، لا لأنهم اقل في الذكاء أو اضعف في العزم او اجهل بأسباب النجاح !

والعجب في امر هؤلاء المغامرين أنهم ما خلوا قط من عنصر الخرافة والتنجيم والتعويل على أمثال النبوءة والفأل التي كان يعول عليها عبد الرحمن ، ونحسب ان الامر طبيعي — بل ضروري — في كل من يعاملون القدر او يعاملون الغيب المحجوب : ونعني بهم كل من يحتاج مساعيهم الى عنصر غير العناصر المعروفة المكشوفة التي تدخل في الحساب فيبقى في عقولهم مكان خال لحساب المجهول الذي يأتي بما ليس في الحسبان ، ويستوي في ذلك من يخوضون غمار الحوادث ومن يخوضون غمار الحروب ومن يخوضون غمار البحار ويركبون مطايا الأخطار . فسلامتهم جميعاً من هذه المهالك لا ترجع الى شيء من تدبيرهم ولا فرق فيها بين حيطتهم واقتحامهم ، ولهذا تطبع عقولهم على الحيلة والحيطة من جانب وعلى المجازفة والتسليم للمقادير من جانب ... وبغير ذلك لا ينجح ذو مطمع من هذه المطامع كائناً ما كان ذكاؤه واقتداره وحسن بلائه ، وكفى بذلك دليلاً على قدرة الفطرة الانسانية على خلق الايمان الذي هي محتاجة اليه

نصف من المعلوم ونصف من المجهول
نصف من التدبير ونصف من التوفيق
نصف من الأصدقاء ونصف من الأعداء
نصف من الماضي ونصف من الحاضر
نصف من الخير والمعرفة ونصف من الشر والجهالة
نصف من المظلم ونصف من الناس والاحداث
نصف من الرجاء ونصف من القنوط

ذلك هو « المزيج » الذي لا غنى عنه في اقامة الدول وفلاح المغامرين في هذا الميدان ، وهو في تاريخ عبد الرحمن الداخل وتاريخ عصره كأظهر ما يكون